أشهر المفتين من أهل اليمن

• **ومن أهل اليمن:**

طاووس بن كيسان الجندى - رضى الله عنه -

كان طاووس بن كيسان من أهل "اليمن".. سمع من زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وغيرهم وكان رأساً في العلم والعمل، وقد قال قيس بن سعيد: كان طاووس فينا مثل ابن سيرين فى أهل البصرة، وقال الذهبى: كان طاووس شيخ أهل اليمن وبركتهم وفقيههم له جلالة عظيمة وكان كثير الحج.

كانت الولاية فى "اليمن" إذ ذاك لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج بن يوسف، وكان طاووس مثله مثل الفقهاء الصالحين شديد الخلاف معه لأنه كان صاحب رأى ومبدأ.

وكأنما أراد محمد بن يوسف أن يرد لطاووس الحجر من حيث جاء، فنصب له شركاً من شراكه.. حيث أعد صرة فيها سبعمائة دينار ذهباً.. واختار رجلاً حاذقاً من رجال حاشيته وقال له:

امض بهذه الصرة إلى طاووس بن كيسان، واحتل عليه فى أخذها.. فإن أخذها منك أجزلت عطيتك.. وكسوتك، وقربتك.

فخرج الرجل بالصرة، حتى أتى طاووساً فى قرية كان يقيم بها بالقرب من "صنعاء" يقال لها "الجند".

فلما صار عنده حياه، وآنسه، وقال له: يا أبا عبد الرحمن، هذه نفقة بعث بها الأمير إليك.

فقال: مالى بها من حاجة.

فاحتال عليه بكل طريق ليقبلها، فأبى... وأدلى له بكل حجة، فرفض.

فما كان منه إلا أن اغتنم غفلة من طاووس... ورمى بالصرة فى كوة كانت بجدار البيت، وعاد راجعاً إلى الأمير وقال: لقد أخذ طاووس الصرة أيها الأمير.

فسر لذلك محمد بن يوسف، وسكت عليه.

فلما مضت على ذلك أيام عدة، أرسل اثنين من أعوانه، ومعهما الرجل الذى حمل إليه الصرة، وأمرهما أن يقولا له:

إن رسول الأمير قد أخطأ فدفع إليك المال، وهو مرسل لغيرك.. وقد أتينا لنسترده منك، ونحمله إلى صاحبه.

فقال طاووس: ما أخذت من مال الأمير شيئاً حتى أرده إليه.

فقالا: بل أخذته.

فالتفت إلى الرجل الذى حمل إليه الصرة، وقال له: هل أخذت منك شيئاً؟!

فأصاب الرجل الذعر[١] وقال: كلا.. وإنما وضعت المال فى هذه الكوة فى غفلة منك.

فقال طاووس: دونكما الكوة، فانظرا فيها.

فنظرا فى الكوة، فوجدا فيها الصرة كما هى، وقد ضرب عليها العنكبوت بنسجه.. فأخذاها، وعادا بها إلى الأمير.

وكأنما أراد الله عز وجل أن يقتص من محمد بن يوسف على فعلته هذه، وأن يجعل قصاصه منه على مرأى من الناس ومشهد.. فكيف وقع ذلك؟!.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، بعث إلى طاووس بن كيسان يقول: أوصنى يا أبا عبد الرحمن.

فكتب إليه طاووس رسالة فى سطر واحد قال فيها: "إذا أردت أن يكون عملك خيراً كله، فاستعمل أهل الخير، والسلام".

فلما قرأ عمر الرسالة قال: كفى بها موعظة.. كفى بها موعظة.

ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك كانت لطاووس بن كيسان معه مواقف مشهورة مأثورة[٢].

من ذلك أن هشاماً قدم البيت الحرام حاجاً.. فلما صار فى الحرم، قال لخاصته من أهل مكة: التمسوا[٣] لنا رجلاً من صحابة الرسول ﷺ.

فقالوا له: إن الصحابة يا أمير المؤمنين قد تلاحقوا بربهم واحداً إثر[٤] آخر حتى لم يبق منهم أحد.

فقال: إذن، فمن التابعين.. فأتى بطاووس بن كيسان.

---

(١) الذعر: الخوف والقلق.
(٢) مأثورة: مروية معروفة.
(٣) التمسوا: ابحثوا.
(٤) إثر: بعد.

فلما دخل عليه، خلع نعليه بحاشية بساطه.. وسلم عليه من غير أن يدعوه بأمير المؤمنين.. وخاطبه باسمه دون أن يكنيه.. وجلس قبل أن يأذن له بالجلوس.. فاستشاط[١] هشام غضباً حتى بدا الغيظ فى عينيه.

ذلك أنه رأى فى تصرفاته تلك اجتراء عليه، ونيلاً من هيبته أمام جلسائه، ورجال حاشيته.. بيد أنه ما لبث أن تذكر أنه فى حرم الله عز وجل.. فرجع إلى نفسه وقال لطاووس:

ما حملك يا طاووس على ما صنعت؟!.

فقال: وما الذى صنعته؟!.

فعاد إلى الخليفة غضبه وغيظه، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطى.. ولم تسلم على بإمرة[٢] المؤمنين.. وسميتنى باسمى، ولم تكننى.. ثم جلست من غير إذنى.. فقال طاووس بهدوء:

أما خلع نعلى بحاشية بساطك، فأنا أخلعهما بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات.. فلا يعاتبنى، ولا يغضب على..

وأما قولك أنى لم أسلم عليك بإمرة المؤمنين.. فلأن جميع المؤمنين ليسوا راضين بإمرتك.. وقد خشيت أن أكون كاذباً إذا دعوتك بأمير المؤمنين.. وأما ما أخذته على من أنى ناديتك باسمك، ولم أكنك.. فإن الله عز وجل نادى أنبياءه بأسمائهم، فقال:

يا داود.. يا يحيى.. يا عيسى.. وكنى أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ[٣] يَدَآ أَبِي لَهَبٍ[٤] وَتَبَّ﴾[٥]. وأما قولك إنى جلست قبل أن تأذن لى.. فإنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب يقول:

" إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس، وحوله قوم قيام بين يديه".

فكرهت أن تكون ذلك الرجل الذى عد من أهل النار.. فأطرق هشام إلى الأرض خجلا.. ثم رفع رأسه وقال: عظنى يا أبا عبد الرحمن.. فأخذ طاووس يعظه بكل سماحة وإخلاص.

---

(١) استشاط: اشتعل.
(٢) إمرة المؤمنين: الخلافة.
(٣) تبت: خسرت.
(٤) أبو لهب: عم الرسول ﷺ ، وأحد عتاة المشركين، آذى النبى أشد الإيذاء هو وزوجته.
(٥) سورة المسد الآية ١.

ولم يكن طاووس بن كيسان يخص الخلفاء والولاة بمواعظه، وإنما بذلها لكل من آنس[١] به حاجة إليها أو رغبة فيها.

من ذلك ما رواه عطاء بن أبى رباح قال:

رآنى طاووس بن كيسان فى موقف لم يرتح له، فقال:

يا عطاء، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق فى وجهك بابه.. وأقام دونك حجابه[٢].. وإنما اطلبها ممن أشرع[٣] لك أبوابه.. وطالبك بأن تدعوه.. ووعدك بالإجابة.

وكان يقول لابنه: يا بنى، صاحب العقلاء تنسب إليهم، وإن لم تكن منهم.. ولا تصاحب الجهال، فإنك إن صحبتهم نسبت إليهم وإن لم تكن منهم.. واعلم أن لكل شىء غاية.. وأن غاية المرء تمام دينه، وكمال خلقه.

وقد نشأ ابنه عبد الله على ما رباه عليه أبوه، وتخلق بأخلاقه، وسار بسيرته.. من ذلك أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور استدعى ولده عبد الله ابن طاووس، ومالك بن أنس[٤] لزيارته، فلما دخلا عليه، وأخذا مجلسيهما عنده، التفت الخليفة إلى عبد الله بن طاووس وقال:

ارو لى شيئاً مما كان يحدثك به أبوك.

فقال: "حدثنى أبى أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه[٥] الله عز وجل فى سلطانه، فأدخل الجور فى حكمه".

قال مالك بن أنس: فلما سمعت مقالته هذه، ضممت على ثيابى خوفاً من أن يصيبنى شىء من دمه... بيد أن أبا جعفر أمسك ساعة لا يتكلم.

ثم صرفنا بسلام.

وقد امتدت الحياة بطاووس بن كيسان حتى بلغ المائة، أو جاوزها قليلاً.. غير أن الكبر والشيخوخة لم ينالا شيئاً من صفاء ذهنه، وحدة خاطره، وسرعة بديهته.

---

(١) آنس: شعر. (٢) حجابه: الواقفين على بابه من عماله وجنده.
(٣) أشرع أبوابه: فتحها على مصاريعها.
(٤) مالك بن أنس: هو أحد تابعى التابعين، وعلم من أعلام المسلمين، وصاحب مذهب مالك.
(٥) أشركه فى سلطانه: ولاه أمراً من أمور المسلمين.

وفى ليلة العاشر من ذى الحجة سنة ست ومائة، أفاض الشيخ المعمر طاووس ابن كيسان مع الحجيج من "عرفات" إلى "المزدلفة" للمرة الأربعين.

فلما حط رحاله فى رحابها الطاهرة، وأدى المغرب مع العشاء... وأسلم جنبه إلى الأرض، يلتمس شيئاً من الراحة... أتاه اليقين... فلقيه بعيداً عن الأهل والوطن، تقرباً لله... خارجاً من ذنوبه كما ولدته أمه، بفضل الله.

فلما طلع عليه الصبح، وأرادوا دفنه... لم يتمكنوا من إخراج جنازته لكثرة ما ازدحم عليها من الناس.

فوجه إليهم أمير مكة حرساً ليذودوا[١] الناس عن الجنازة حتى يتاح[٢] لهم دفنها... وقد صلى عليه خلق كثير لا يحصى عددهم إلا الله... وكان فى جملة المصلين خليفة المسلمين... هشام بن عبد الملك.

رحم الله "طاووس" الذى كان كثير الحج فوافته المنية أثناء وجوده بمكة سنة ١٠٦هـ .. رحمه الله رحمة واسعة فقد كان رأسا فى العلم والعمل.

* * *

(١) ليذودوا: ليدفعوا.

(٢) يتاح لهم: يسهل لهم.

المراجـــع

تاريـــخ التشريـــع الإسلامـــى	للمرحوم الشيخ محمد الخضرى بك
القضـــاء فـــى الإســـــلام	إبراهيـــم نجيـــب
رســـالـــة فـــى الفتيـــا	جمـــال الديـــن الدمشقـــى
تاريـــخ التربيـــة الإسلاميـــة	د. أحمـــد شلبـــى
الشيعة للسيد محمد صادق الصدر	القاضـــى النعمـــان
دعائـــم الإســـــلام	القاضـــى النعمـــان
مدارس الحـــب مصانـــع الرجال	محمـــد خالـــد ثابـــت
فـــى رحـــاب علـــى	خالـــد محمـــد خالـــد
مـــوكـــب الشهـــداء	محمـــد خالـــد ثابـــت
تهذيـــب الأسمـــاء واللغـــات	للنـــووى
الكـــواكـــب الدريـــة	للمنـــاوى
الخلفـــاء الراشـــدون	د. أبـــو زيـــد شلبـــى
حيـــاة الصحـــابـــة	محمد يوسف الكاندهلـــوى
رجـــال حـــول الرســـول	خالـــد محمـــد خالـــد
خلفـــاء الرســـول	خالـــد محمـــد خالـــد
موسوعة النظم والحضارة الإسلامية	الدكتـــور أحمـــد شلبـــى
السيـــرة النبويـــة	لابـــن هشـــام
الإصابـــة فى تمييـــز الصحابـــة	لابـــن حجـــر
الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده	تحقيق وتقديم الدكتور محمد عمارة
سلسلـــة أعمـــدة الإســـلام	إعداد حلمـــى على شعبـــان